(سورة الدخان)

{ حم } { وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ }

{ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ }

{ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ } { أَمْراً مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ }

{ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ }

{ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ }

{ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ ٱلأَوَّلِينَ }

{ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ }

{ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ }

{ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ }

{ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ }

{ إنَّا أنْزَلناه في لَيلَة مُبَاركة } الليلة المباركة هي بنية رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونها حادثة مظلمة ساترة لنور شمس الروح، ووصفها بالمباركة لظهور الرحمة والبركة من الهداية والعدالة في العالم بسببها وازدياد رتبته وكماله بها. كما سماها ليلة القدر لأن قدره عليه السلام معرفته بنفسه وكماله إنما يظهر بها، ألا ترى أنّ معراجه إنما كان بجسده؟

إذ لو لم يكن جسده لم يكن ترقيه في المراتب إلى التوحيد وإنزال الكتب فيها إشارة إلى إنزال العقل القرآني الجامع للحقائق كلها، والفرقاني المفصّل لمراتب الوجود، المبين لتفاصيل الصفات وأحكام تجلياتها، المميز لمعاني الأسماء وأحكام الأفعال فيها وهو معنى قوله فيها:

{ فيها يفرق كل أمر حكيم } أو إلى إنزال الروح المحمدي الذي هو الكتاب المبين حقيقة في صورتها أو القرآن { إنّا كُنّا مُنْذرين } لأهل العالم بوجوده.

{ أمراً من عندنا } خصّ الأمر الحكمي بكونه من عنده لأن كل أمر يبتني على حكمة وصواب كما ينبغي من الشرائع والأحكام الفقهية إنما يكون من عنده

مخصوصاً بـه مطلقـاً لمـا في نفـس الأمـر وإلا كان أمـراً مبنيـاً عـلى الهـوى والتشـهي { إنَّـا كنـا مُرْسَـلين * رحمـة مـن ربّـك } تامـة كاملـة عـلى العالمـين بإنزالـه لاسـتقامة أمورهـم الدينيـة والدنيويـة وصـلاح معاشـهم ومعادهـم وظهـور الخـير والكـمال والبركـة والرشـاد فيهـم بسـببه أو مرسـلين إيـاك لرحمـة كاملـة شـاملة عليهـم { إنّه هو السميع } لأقوالهم المختلفة في الأمور الدينية الصادرة عن أهوائهم { العليـم } بعقائدهـم الباطلـة وآرائهـم الفاسـدة وأمورهـم المخيلـة ومعايشـهم الغـير المنتظمـة، فلذلـك رحمهـم بإرسـال الرسـول الهـادي إلى الحـق في أمـر الديـن، الناظـم لمصالحهـم في أمـر الدنيـا. المرشـد إلى الصـواب فيهـما بتوضيـح الـصراط المسـتقيم وتحقيـق التوحيـد بالبرهـان وتقنـين الشرائـع وسـنن الأحـكام لضبـط النظـام.

{ فَارْتَقب يوم تأتي السَّماء بدُّخان مبين }

أي: وقت ظهور آيات القيامة الصغرى أو الكبرى فإن الدخان من أشراطها.

فاعلـم أن الدخـان هـو مـن الأجـزاء الأرضيـة اللطيفـة المتصاعـدة عـن مركزهـا لتلطفهـا بالحـرارة، فـإن فسرنـا القيامـة بالصغـرى فالدخـان هـو السـكرة والغشـية والانقباضيـة العارضـة لسـماء الـروح عنـد النـزع بسـبب هيئـة التعلـق البـدني والفـترة المرتكبـة عـلى وجههـا مـن مبـاشرة الأمـور السـفلية والميـل إلى اللـذات الحسـية ولهـذا قـال عليـه السـلام في وصفـه:

« أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره «

فـإن المؤمـن لقلّـة تعلقـه بالأمـور البدنيـة وضعـف تلـك الهيئـة المسـتفادة مـن مبـاشرة الأمـور السـفلية يقـل انفعالـه منهـا ويسـهل زوالـه وخصوصـاً إذا اكتسـب ملكـة الاتصـال بعـالم الأنـوار. وأمـا الكافـر فلشـدّة تعلقـه وقـوة محبتـه للجسـمانيات وركونـه إلى السـفليات تغشـاه تلـك الهيئـة فتحـيره وتشـمله حتـى عمّـت مشـاعره الظاهـرة والباطنـة ومخارجـه العلويـة والسـفلية فـلا يهتـدي إلى طريـق لا إلى العـالم العلـوي ولا إلى العـالم السـفلي { هـذا عَـذَاب أليـم } ولمـا كان الغالـب عليـه التمنـي والتنـدّم فيتمنـى مـا كان فيـه مـن الحيـاة والصحـة ويتنـدّم عـلى مـا كان عليـه مـن الفسـوق والعصيـان والفجـور والطغيـان، قـال بلسـان الحـال:

{ ربنا اكشف عنا العذاب إنَّا مؤمنون } أو بلسان المقال على ما ترى عليه حال بعض من وقع في النزع من العصاة من التوبة وموعدة الرجوع إلى الطاعة.

{ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ }

{ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ }

{ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ }

{ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ }

{ أنى لهم الذكرى } أي: الاتعاظ والإيمان بمجرد انكشاف العذاب { وقد جاءهم } ما هو أبلغ منه من الرسول المبين طريق الحق بالمعجز والبرهان ودعاهم إلى سبيله بالطرق الثلاثة من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن { ثمَّ } أعرضوا ونسبوه إلى الجنون والتعليم المتنافين لفرط احتجابهم وعنادهم { إنَّا كاشفوا العذاب قليلاً } بتعطيل الحواس والإدراكات { إنكم عائدون } إليه.

{ يوم نبطش البطشة الكبرى } أي: وقت تمام الفراغ إلى إدراك العذاب المؤلم بتلك الهيئات وتحقق الخلود { إنّا منتقمون } معذّبون بالحقيقة أو بالردّ إلى الصحة والحياة البدنية، إنكم عائدون إلى الكفر لرسوخه فيكم { يوم نبطش البطشة الكبرى } بزوال الاستعداد وانطفاء نور الفطرة بالرين الحاصل من ارتكاب الذنوب والاحتجاب الكلي الموجب للعذاب الأبدي كما قال:

{ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ

كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ }

[المطففين، الآيات:١٤ - ١٥] ننتقم منهم بالحقيقة بالحرمان الكلي والحجاب الأبدي والعذاب السرمدي. وإن فسرنا القيامة بالكبرى: فالدخان هو حجاب الأنية الذي يغشى الناس عند ظهور نور الوحدة بطغيان النفس لانتحال صفات الربوبية وغلبة سكرة يوم الجمع المورثة للإباحة إذ هو من بقية النفس الأرضية اللطيفة بنور الوحدة المرتقبة إلى محل الشهود التي تأتي بها سماء الروح لتأثيره فيها بالتنوير إذ لم تحترق بالكلية بنار العشق بل صفت وتلطفت وتصعدت.

فأما المؤمن بالإيمان الحقيقي الموحد التام الاستعداد، المحب الغالب المحبة،

فيصيبه كهيئة الزكمة، أي: السكرة التي قال فيها أبو زيد قدّس الله روحه: سبحاني ما أعظم شأني. والحسين بن منصور رحمه الله: أنا الحق. ثم يرتفع عنه سريعاً لمزيد العناية الإلهية وقوة الاستعداد الفطرية وشدة المحبة الحقيقية، فيتنبه لذلك ويتعذب به غاية التعذب ويشتاق إلى الانطماس في عين الجمع غاية الشوق، فيقول: هذا عذاب أليم، ويطلب الفناء الصرف، كما قال الحلاج قدّس الله روحه: بيني وبينك أني ينازعني فارفع بفضلك أني من البين.

ويدعو بلسان التضرع والافتقار:

{ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ }[الدخان، الآية:١٢]

بالإيمان العيني عند كشف الحجاب الآني، { أنى لهم الذكرى } من أين لهم ذكر الذات والإيمان العيني في مقام حجاب الأنائية، { وقد جاءهم رسول مبين }

أي: رسول العقل المبين لوجوداتهم وصفاتهم، أي: إنما احتجبوا بحجاب الأنية لظهور العقل وإثباته لوجوداتهم، فكيف ذكرهم للذات تعجب من تذكرهم مع كونهم عقلاء ثم بيّن كونهم عشاقاً مشتاقين بقوله: { ثم تولوا عنه } لقوة المحبة وفرط العشق { وقالوا معلم } أي: من عند الله بإفاضة العلم عليه { مجنون } مستور الإدراك، محجوب عن نور الذات، كما قال جبريل عليه السلام:

« لو دنوت أنملة لاحترقت ».

{ إنا كاشفوا العذاب } أي:عذاب الحجاب والحرمان لإعراضهم بقوة العشق عن الرسول قليلاً بطلوع نور الوجه الباقي وإشراق سبحاته وإحراقها ما انتهى إليه بصره من خلقه { إنكم عائدون } بالتلوين إلى الحجاب بعد تجلي نور الذات لبقية الآثار إلى وقت التمكين { يوم نبطش البطشة الكبرى } أي: وقت الفناء الكلي والانطماس الحقيقي بحيث لا عين ولا أثر { إنا منتقمون } أي: ننتقم بالقهر الأحدي والإفناء الكلي من وجوداتهم وبقاياهم فيطهرون عن الشرك الخفي بالوجود الأحدي.

{ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ }

{ أَنْ أَدُّواْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ }

{ وَأَن لاَّ تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ }

{ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ }
{ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ }
{ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ }
{ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ }
{ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ }
{ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } { وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ }
{ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَاكِهِينَ }
{ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ }
{ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ }
{ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ }
{ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ }
{ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ }
{ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ ٱلآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُّبِينٌ }
{ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ }
{ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا ٱلأُوْلَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ }
{ فَأْتُواْ بِآبَآئِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
{ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ }
{ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ }
{ مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ }
{ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ }
{ يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ }
{ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ }

{ ولقَد فتنا قبلهم قوم فرعون } النفس الأمارة من قبط القوى الحيوانية
{ وجَاءَهم رَسُول كريم } هو موسى القلب الشريف المجرّد { أن أدّوا إليّ عباد الله } المخصوصين به من القوى الروحانية المأسورين في قيود طاعتكم، المستضعفين باستيلائكم، المستعبدين لقضاء حوائجكم وتحصيل مراداتكم من اللذات الحسيّة والشهوات البدنية { إنِّي لَكُم رَسُول أمين } بحصول علم اليقين المأمون من تغيره.
{ وأن لا تعلو على الله } بعصيانه وترك ما أدعوكم إليه واستكباركم { إنِّي آتيكم } بحجة واضحة من الحجج العقلية { وإنِّي عذت بربِّي وربّكم أن ترجمون } بأحجار الهيولى السفلية والأهواء النفسية والدواعي الطبيعية فتجعلوني بحيث لا حراك في طلب الكمالات الروحانية والأنوار الرحمانية وتهلكوني.
{ وإنْ لم تؤمنوا لي } بطاعتي ومشايعتي في التوجه إلى ربّي وطلب كمالي والتنور بأنواري { فَاعْتَزِلون } بعدم ممانعتي وترك محاجزتي ومعاوقتي في سيري وسلوكي { فدعا ربّه } بلسان التضرّع والافتقار { أنّ هؤلاء قَوْم مجرمون } في اكتساب المطالب الجرمية واللذات الحسيّة، منهمكون فيها، لا يرفعون منها رأساً.
{ فأسر } أي: فقال الله: أسر { بعبادي } الروحانيين من القوى العقلية والفكرية والحدسية والقدسية وصفاتك المخلصة إلى حضرة القدس وراء بحر الهيولى { ليلاً } وقت نعاس القوى الحسيّة وتعطل القوى البدنية { إنكم متّبعون } بمطالبتهم إياكم بكمالات الحسّ ومجاذبتهم لكم عن جناب القدس { واتْرك } بحر الهيولى والمواد الجسمانية ساكنة على قرارها ساجية عن أمواجها غير مزاحمة إياكم باضطراب أحوالها وانحراف مزاجها، ومتسعة طرقها منفرجة لنفوذ تلك القوى وسريانها وتصرفها فيها { إنهم جند مُغْرَقون } هالكون يتموّج البحر وطمسه إياهم عند خراب البدن.

{ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ }{ طَعَامُ ٱلأَثِيمِ }
{ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ }{ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ }
{ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ }
{ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ }
{ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ }

{ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ }
{ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ }{ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ }
{ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ }
{ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ }

{ إنّ شَجَرَة الزقوم طعام الأثيم } شجرة الزقوم هي النفس المستعلية على القلب في تعبّد الشهوة وتعوّد اللذات، سميت زقوماً لملازمتها اللذة، إذ الزقم والتزقم عندهم أكل الزبد والتمر، ولكونه لذيذاً نسبت تبعة اللذة إليه واشتق لها اسم منه، ولا يطعم منها ويستمد من قواها وشهواتها إلا المنغمس في الإثم المنهمك في الهوى { كالمُهل } أي: دردي الزيت لثقلها وترسبها وسرعة نفوذها في المسام للطافتها وحرارتها اللازمة لطلبها ما يهواها، أو النحاس الذائب في ميلها إلى الجهة السفلية وإيذائها القلب بشدّة الداعية ولهج الحرص ولهب نار الشوق مع الحرمان { يغلي في البطون } تضطرب وتقلق في البواطن من شدّة حرّ التعب في الطلب فتقلق القلوب وتحرقها بنار الهوى ومنافاة ظلمتها لنوريتها وتسري فيها بالأذى لاستيلاء هيئتها عليها ولطف هواها الذي هو روح النفس ورسوخ محبتها فيها، ولهذا قيل: ذواق السلاطين محرقة الشفتين،

{ كغلي الحَمِيم } الساري بحرّه في المسامّ للطافته وقوله في البطون كقوله:

{ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْئِدَةِ }[الهمزة، الآيات:٦ - ٧].

{ ذق إنك أنت العزيز الكريم } إشارة إلى انْعكاس أحوالها لانتكاس فطرتها، فإنّ اللذة والعزّة الجسمانية و الكرامة النفسانية موجبة للألم والهوان والذلّة الروحانية { إنّ هذا ما كُنْتم به تَمترون } لحسبانكم انحصار اللذات والآلام في الحسيّة واحتجابكم بها عن العقلية.

{ إنّ المتَّقين } الكاملين في التقوى باجتناب البقايا { في جنَّات } عالية من الجنان الثلاث { وعُيُون } من علوم الأحوال والمعارف وغيرها من المنافع الحقيقية { يلبسون من سُنْدس } لطائف الأحوال والمواهب لاتصافهم بها كالمحبة والمعرفة والفناء والبقاء { وإسْتَبرق } فضائل الأخلاق كالصبر والقناعة والحلم والسخاوة

{ مُتَقَابلِين } على رتب متساوية في الصف الأول من صفوف الأرواح لا حجاب بينهم لتجرّد ذواتهم وبروزهم إلى الله عن صفاتهم

{ كذلك وزوّجناهم بَحُورٍ عين } أي: قرناهم بما فيه قرّة أعينهم واستئناس قلوبهم لوصولهم بمحبوبهم وحصولهم على كمال مرادهم.

{ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ }

{ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلاَّ ٱلْمَوْتَةَ ٱلأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ }

{ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ }

{ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }

{ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ }

{ يدعون فيها بِكُل فَاكِهة } أي: كل ما يتلذذ به من لذائذ الجنان الثلاث

{ آمِنِين } من الفناء والحرمان عن تلك النعماء

{ لا يذوقون فيها الموت إلاَّ الموتة الأولى } أي: الطبيعة الجسمانية لا الفناء من الأفعال والصفات والذات فإنّ كل فناء منها وإن كان موتاً إرادياً لكنه حياة أصفى وألذ وأشهى وأبهج مما قبلها وكل منها في جنة { ووقاهم عذاب الجحيم } أي: جحيم الحرمان بوجود البقية فضلاً عن الخذلان في جحيم الطبيعة

{ فضلاً من ربّك } موهبة محضة وعطاء صرفاً من ربك بالوجود الحقاني عند تلاشي الآلات النفسانية { ذلِكَ هو الفَوْز العظيم } والله أعلم.